خصائص المنهج العلمي لتوصيف الكلم عند سيبويه

د. عيسى بن سديرة (*)

تمهيد:

ما أكثر ما يشاع في كلام الدارسين أن النحو العربي نحومعياري، وأنه مملوء بالأحكام المنطقية والافتراضات التأملية التصورية التي تجعله بعيدًا عن محكّ العلم وضوابطه.. لكننا نهيب في البدء بكل دارس منصف أن ينأى بعقله الحصيف عن الأحكام العامة التي تفتقر إلى التمحيص الموضوعي، وندعوه إلى أن يتفحص معنا هذه الصفحات التي اجتهدنا في جعلها أوثق ما تكون صلة بالموضوعية العلمية التي تنزِّه التناول العلمي عن الأحكام التعميمية والأهواء الذاتية المغرضة.

إننا لا ننكر بتاتًا أن ينطوي النحوالعربي على مواصفات معيارية، تضبط قواعده الإلزامية، وتحكم قوانينه المؤطرة للاستعمال اللغوي، لكننا نقدِّر فعلاً أن ذلك منوط بمنهج النحو التعليمي، الذي يُراد منه تكييف الحقائق والأحكام العلمية المبتكرة في البحث العلمي، وهو في ذلك ليس بدعًا من بين جميع طرائق

(*) محاضر في جامعة فرحات عباس بالجزائر.

التقعيد النحوي التي استنبطها العلماء في جميع اللغات الإنسانية، لتحفظ لها الاستمرار والثبات لأطول مدة زمنية ممكنة في مسار الثقافات واللغات البشرية.

ولابد من الإشارة في هذا الصدد، إلى أن المبادرة بإجراء التصنيف المقدم بين المنهج العلمي للنحوالعربي، وبين الطرائق التعليمية، ليس ذلك بتاتًا من باب التقدير أوالافتراض للوقائع، بل هو ترسيخ لمسار التأسيس المنهجي الحقيقي لعلم النحو من بداية نشأته حتى أواخر القرن الثاني الهجري، متواكبًا مع المدرستين الأصيلتين في البصرة والكوفة.

وبعد ظهور المدرسة البغدادية، في القرن الثالث الهجري، شرعت الكفة تميل إلى تغليب الاحتياجات التعليمية، فأقبل الدارسون على إرساء وتخطيط ما يمكن اعتباره إرهاصًا مقدمًا لبيداغوجيا تعليم النحوالعربي، لا سيما وأن ظروف المرحلة التأسيسية لمنهج النحوالعلمي قد بدأت تتغير. فبعد ما كان العلماء ابتداءً يركزون على استخلاص القوانين والأحكام النحوية الموضوعية لمختلف الظواهر اللغوية استخلاصًا مباشرًا، انتقلوا بعد الموجة الأولى (البصرية) والموجة الثانية (الكوفية)، إلى تركيز أنظارهم على نحو النحو، بالبحث في الاختلافات الاجتهادية لأجل الترجيح والاختيار في نطاق المدرسة البغدادية، وشرعوا في الإقدام على تكييف الأحكام النحوية حتى تستجيب لمقتضيات التعليم، وتوجيه الاستعمال اللغوي، وضبطه في نطاق القواعد المعيارية الملزمة، لإحكام الرقابة المفروضة على كل مستعمل للعربية اكتسابًا وليس سليقة.

إن الانتقال من المرحلة التأسيسية التأصيلية لمنهجية النحوالعربي، والمرور إلى مرحلة النحو التعليمي، قد واكبه دخول المؤثرات الأجنبية من رواسب المنطق اليوناني، بفعل الترجمة التي أسهمت في تنشيط ظهور علم الكلام في الثقافة العربية الإسلامية، على حين نشأ النحوالعربي قبل ذلك كعلم أصيل في ظل الظروف والعوامل البيئية الخاصة، التي دفعت إلى التفكير في تنشئة علم النحووالتحفيز إلى إعلاء صرح البحث فيه. ولا شك أبدًا في أن أصالة هذا العلم نابعة من أصالة العربية التي كانت محفوظة ومصونة في البيئة المحلية النقية من شوائب الدخيل في الجزيرة العربية.

على أنه لا مناص لنا من الإقرار بأن البحث في الأسس والخصائص المنهجية قد كان ضعيفًا، ولا يزال كذلك في مختلف فروع الدراسات العربية الإسلامية، ومن الحق مع ذلك أن نؤكِّد أن علوم العربية كانت تنطوي على تأسيس منهجي عظيم القدر والأهمية، خاصة في نطاق التوجه العلمي المؤسس في كل من مدرستي البصرة والكوفة، لكن الأبحاث العلمية لم تنقِّب كثيرًا في أعماق التراث العلمي للمدرستين من أجل استبطان الخصوصيات والمقاييس المنهجية المؤطرة للبحث العلمي في المدرستين، وانحصرت عناية الدارسين في مستوى استنباط المعطيات والمسائل العلمية المباشرة من مظاهر الخلاف بين المدرستين.

وفي هذا الأفق بالذات، فإنه لا يمكن لنا أن نتصور إمكان تحقيق إنجازات علمية ودراسية في مستوى ما أضحت تحققه الدراسات الغربية الحديثة، دون

الإقدام على الحفر المعرفي المعمق في الطبقات العميقة للدراسات التراثية العربية، من أجل استبطان الأسس المنهجية التي قامت عليها تلك الدراسات، بهدف تأطير البحث فيها ومواصلة مسار تطويرها على سكة البحث العلمي كما كانت عليه عند انطلاقها في صدر الإسلام.

وإنني لأرجو بحق وصدق، أن تجسم هذه المحاولة الاجتهادية، لاستبطان الخصائص المنهجية الكامنة في طيات التنظير العلمي لتوصيف الكلمة عند سيبويه، لبِنةً صالحة وخطوة سديدة في سبيل القراءة المنهجية المدققة للنصوص العلمية التراثية.

- أولاً: البدء بالعنوان المفتاح:

١- فإن المغزى من قوله في أول كلمة من العنوان: «هذا باب»[١] هوتحديد القصد إلى المتعين الموضوعي المعلوم، بعيدًا عن الذات المدركة ومستقلًّا عنها. وليس الأمر في ذلك كما قال السّيرافي في شرحه، أنه: «أشار إلى ما في نفسه من العلم الحاضر، أوأشار إلى منتظر قد عُرِف قُربه...»[٢]. بل إن سيبويه قد تعمد أن يفتتح جميع عناوين أبواب الكتاب باسم الإشارة «هذا». ليرسخ القصد بأن الأمر يتعلق بمشخّص موضوعي منفصل عن الذات المدركة بمسافة معلومة. وأنه يشير بذلك إلى منظور قد عُلم بعده عن الذات.

(١) الكتاب سيبويه تح وشرح عبد السلام هارون. مكتبة الخانجي القاهرة.ج١.ص:١٢.

(٢) هامش الكتاب.ص:١٢.

٢– وأما دلالة قوله في العنوان: «هذا باب علم»[٣]، فإن في ذلك نصًّا واضحًا من العالم سيبويه على أن البحث في توصيف الكلمة هوالمدخل الرئيسي للبحث في جميع أبواب العربية ومسائلها؛ وذلك لأن توصيف الكلمة هوالأصل المؤسس لعلم العربية كما ورد عن الإمام علي كرّم الله وجهه، وأبي الأسود الدؤلي ﷺ، وهوالقلب النابض الذي يضخ دم الحياة في جسم العربية كله.

وتجدر الإشارة في هذا المقام، إلى أن عبارة «هذا باب علم» لم ترد في الكتاب سوى أربع مرات على النحوالآتي:

أ/ ذكرها سيبويه في سياق توصيف الكلمة من هذا النص في صفحة ١٢من الجزء الأول.

ب/ ثم أوردها ثلاث مرات في الجزء الرابع من الكتاب:

– في صفحة ٣٨ : «هذا باب علم كل فعل تعداك إلى غيرك».

وهوباب عظيم في علم العربية أيضًا يشمل المفاعيل كلها.

– وفي صفحة ٢٣٥: «هذا باب علم حروف الزوائد».

وهويشكِّل كذلك قسمًا كبيرًا في كيفية تكوين الكلمات العربية من الأسماء والأفعال.

– وفي صفحة ٣٢٩: «هذا باب علم مواضع الزوائد من مواضع الحروف غير الزوائد». وهو يلخص أحد أعظم أبواب علم الصرف العربي الخاص بتمييز الزوائد من الأصول في حروف الكلمة.

(٣) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

٣- ثم ما هي دلالة استعماله للاستفهام من العنوان نفسه: «هذا باب علم ما الكلم من العربية؟» .

وأظن أن المغزى في ذلك هو أننا إذا كنا قد علمنا أن أصل علم العربية هو توصيف الكلمة، فلنعلم كذلك أن مفتاح كل علم هوالسؤال المنبه عليه ليبحث عنه ويستخرج من موضعه الذي كان قبل ذلك مستخفيًا فيه.

ثانيًا: ثم نتحول بعد هذا إلى متن النص:

١- «فالكلِم»: هذا هو المصطلح الأصيل الذي وظفه سيبويه في صيغة الجمع لمفرده «كلمة»، وكان قمينًا بجميع العلماء والدارسين بعد سيبويه أن يلتزموا باستعمال هذا المصطلح لأقسام الكلِم في العربية وليس أقسام الكلام كما وجدناه عند بعض الدارسين.

«فاختار الكلِم على الكلام، وذلك أن الكلام اسم من كلّم، بمنزلة السّلام من سلّم، وهما بمعنى التكليم والتسليم، وهما المصدران الجاريان على كلّم وسلّم، قال الله سبحانه وتعالى:﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴾ [النساء: ١٦٤]، وقال- عزّ اسمه-: ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾[الأحزاب: ٥٦]، فلما كان الكلام مصدرًا، يصلح لما يصلح له الجنس، ولا يختص بالعدد دون غيره، عَدَل عنه إلى الكَلِم، الذي هوجمع كلمة، بمنزلة سلِمة وسَلِم[٤]، ونبِقة ونَبِق، وثفِنة وثَفِن[٥]..

(٤) السلِمة ، والجمع سِلام: الحجارة.

(٥) الثفِنة، من البعير والناقة: الركبة.

وذلك أنه أراد تفسير ثلاثة أشياء مخصوصة، وهي الاسم والفعل والحرف، فجاء بما يخص الجمع، وهوالكلِم، وترك ما لا يخص الجمع، وهوالكلام؛ فكان ذلك أليق بمعناه، وأوفق لمراده»(٦).

فلعله من نافلة القول أن نسجل الدعوة في هذا الشأن، إلى توحيد مفهوم مصطلح الكلِم على النحوالذي أرساه سيبويه، ثم نجعل مفهوم الكلام خاصًّا بأقسام الخبر والإنشاء.

٢- وأمّا قوله: «وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل»(٧)، فقد بدأ فيه بإقامة أسّ الأضعف وتحديده، لأنه لا يتقوم بذاته، فلابد من إضافته إلى غيره أومقابلته له.

٣- «فالاسم: رجل، وفرس، وحائط»(٨): وصف وتمثيل وتشخيص موضوعي محايد للحقيقة اللغوية للاسم، بلا تدخل للذات الواصفة فيه، ولا أثر لأي تداخل بين الذات والموضوع، على عكس ما نجده في التعريفات التعليمية التي تقحم الملكة الذهنية للذات المدركة في تحقيق التصور المندمج بين الذات والموضوع، على غرار ما ورد في النماذج التعريفية الآتية:

أ/ قال أبوالقاسم الزجاجي « أقسام الكلام ثلاثة: اسم، وفعل، وحرف جاء لمعنى... فالاسم ما جاز أن يكون فاعلاً أومفعولاً، أو دخل عليه حرف من حروف الخفض».

(٦) الخصائص . ابن جني. تحقيق محمد علي النجار. المكتبة العلمية. ج١. ص: ٢٥.

(٧) الكتاب ص ١٢.

(٨) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

ب/ قال الإسفراييني:

« أما المقدمة فهي أن الكلمة هي اللفظ الموضوع للمعنى مفردًا، وهي اسمٌ إن دلّ على معنى في نفسه ولم يقترن بأحد الأزمنة الثلاثة ك (رجل)، فعلٌ إن اقترن به ك (ضرب)، وإلاّ فهي حرف ك (قد)...».(٩)

جـ/ قال ابن هشام الأنصاري:

«فالاسم في الاصطلاح: ما دلّ على معنى في نفسه غير مقترن بأحد الأزمنة الثلاثة...

«والفعل في الاصطلاح: ما دلّ على معنى في نفسه مقترن بأحد الأزمنة الثلاثة... « والحرف في الاصطلاح: ما دل على معنى في غيره...».(١٠)

يتضح جليًّا من هذه النماذج التعريفية الثلاثة للاسم والفعل والحرف، أنها تجنح إلى الدّمج بين الذّات المدركة والموضوع الموصوف، من استدعائها للملكة الذهنية في إدخال تصوراتها الخاصة لدلالة الاسم والفعل والحرف، فبمجرد قول التعريف (ما جاز) أو(ما دلّ على)، فإنه ينفتح الباب أمام الذات المدركة لإدخال تصورها الخاص حول معنى الموضوع الموصوف إن كان اسمًا أوفعلاً

(٩) الإسفراييني تاج الدين، تحقيق بهاء الدين عبد الوهاب. دار الرفاعي. الرياض. ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م. ص: ١٢٤.

(١٠) شرح شذور الذهب . لابن هشام الأنصاري. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية. بيروت.١٤١٨هـ/ ١٩٧٩م. ص:٣٧.

أوحرفًا... وهذا من طبيعة النحوالتعليمي، الذي يرمي إلى توصيل الموضوع وإدماجه في الذات المدركة، على حين يلجأ النحوالعلمي إلى فصل الذات عن الموضوع عند توصيف الكلمة العربية اسمًا وفعلاً وحرفًا.

ومما ينبغي ملاحظته أيضًا بهذا الصدد، أن التوصيف التمثيلي عند سيبويه ينطوي على خاصية التصنيف النوعي للمسميات دونما تدخل من الواصف بالشرح والبيان، وإنما تساق كما هي في الواقع الموضوعي المشخص، لتعبر بنفسها عن دلالة التصنيف الكامن فيها... ذلك أن سيبويه لم يكن به عجز في التعبير عن دلالة الاسم لو شاء ذلك فعلاً، لكننا سنلحظ بعد هذا أن توصيفه للفعل خاصّة قد أعجز به جميع من جاء بعده من العلماء المحققين الفطاحل.

ثالثًا: متن المتن في النص:

وننتقل بعد هذا إلى ما يمكن اعتباره متن المتن في هذا النص العلمي البديع، الذي يقدم لنا تشريحًا توصيفيًّا يترجم عن أدق خصوصيات اللغة العربية في صناعة هندسة المبنى المعنى.

١- ففي قوله: «وأما الفعل فأمثلة...».[١١]

إذ المعلوم أن الأمثلة هي الأبنية، وهي الصيغ، وهي القوالب والأنماط والموازين المخصصة للفعل.

(١١) الكتاب. سيبويه. ص:١٢.

٢- «أُخِذَتْ »[١٢] : تُضمر فيه الإشارة إلى ثبات القياس في أبنية العربية، على ما هومعلوم في الرصيد المحفوظ للغة العربية من أنظمة اشتقاقية دقيقة.

٣- « من لفظ أحداث الأسماء»:[١٣]

في ذلك إشارة صريحة إلى أولوية اعتبار العلاقة الاشتقاقية المتولدة في لفظ الفعل من لفظ مصدره، فالأهمية تُعطى عند إحداث الصّيغ البنوية الخاصة بالأفعال للّفظ قبل المعنى على شاكلة (فعل - يفعل - افعل) وغير ذلك.

٤- « لما مضى»:

يبدو من الصيغة الموصولية لغير المتعين، أن الأمر يتجه في هذا الخصوص إلى تجسيد الطبيعة اللغوية للفعل الماضي، من أنه يتميز ببنية مخصوصة، تحمل دلالة عضوية ممتزجة من الحدث والزمن معًا بلا انفصام بينهما. وتلك الخصوصية الازدواجية فيما بين الحدث والزمن تتحقق أيضًا في المضارع والأمر على السواء.

أ- فالمامَضى: يعبِّر به سيبويه عن النواة الملتحمة في لفظ الفعل من ثنائية الحدث/ الزمن... وهذا التحديد البالغ في دقته العلمية للفعل في العربية، لم ينص عليه أحد من العلماء لا قبل سيبويه ولا بعده؛ فهوالعالِم الوحيد الذي استطاع أن يقدّم توصيفًا أصيلاً ودقيقًا لهذا الطابع اللغوي والبنوي المميز للفعل في العربية.

(١٢) المصدر نفسه. الصفحة نفسها.

(١٣) المصدر نفسه. الصفحة نفسها.

ب- ثم إن «المامَضى»، يقابله في الوجود الطبيعي «ما يكون ولم يقع»، حيث إنهما يشكلان طرفي السلسلة الممتدة من الماضي إلى المستقبل... فهما اللذان يقع بين تجاذبهما الطرف الوسيط لما «هوكائن لم ينقطع».[١٤]

جـ- فالبناء يعبر عن وجود صيغ لغوية تأتي في شكل قوالب ثابتة، تُصب الكلمات اللغوية في أمثلتها صبًّا منتظمًا وموزونًا، وهو ما دعا العلماء إلى إطلاق مصطلح «الميزان الصرفي» الذي يقوم بضبط معظم أصناف الكلمات اللغوية في العربية أسماءً وأفعالاً.

د- وإذا كان مصطلح «البناء» يجسد دلالة الثبات والاستقرار في الرصيد اللغوي، فإن مصطلح «المثال» يعبر بدوره عن تحقق الانتظام والتناسق في عناصر النظام اللغوي.

٥- « فأما بناء ما مضى»[١٥] :

فأمثلته من الوقائع المجسِّدة لشتى أصناف الكلمات اللغوية هي: ذهَب، سَمِع، مكَث، حُمِد...

ويتم ذلك بتحريك عين الكلمة خاصّة في الأفعال المباشرة.

٦- « وأما بناء ما لم يقع»[١٦]:

(١٤) الكتاب. سيبويه. ص:١٢.

(١٥) المصدر نفسه. والصفحة نفسها.

(١٦) المصدر نفسه. والصفحة نفسها.

فإنه قولك آمرًا «اذهب»، ومخبرًا «يذهب»، وغير ذلك من أصناف الصياغة الفعلية للحال والاستقبال.

أ- فإن في ذلك ما يثبت بالقطع افتراق التوصيف العلمي؛ الذي يجمع بين صيغ الأمر والمضارع في صعيد واحد، وهذا بمراعاة الخصوصية المشتركة التي دمجت بينهما، وهي انتفاء صفة الإيقاع الحدثي عنهما معًا.

ب- ويقتضي التوظيف التعليمي لهذه المعطيات، اشتراط ضرورة الفصل بين الأمر والمضارع.. لأن المسألة عندئذ تغدو نوعًا من النمطية الضرورية القابلة للإدراك المتميز لكل طرف من هذه الأطراف المتجاورة ضمن حدود واضحة. على حين وجدناها تأتي في التوصيف العلمي ضمن حقول وصفية كلية عامة.

جـ- فإذا كانت «البنية الفعلية» مزوَّدة لغويًّا بقوة الثبات، فإن المضمون الإخباري ينطوي في الواقع اللغوي الاستعمالي على قوة الإثبات كذلك، سواء في التحقق الواقعي أوانتفائه، ولذلك فإن المحتوى الإخباري للغة قد يتجاوز مظهرية «البناء المستقل».. وفي كل هذا يكمن الدليل القاطع على أولوية الطبيعة الإخبارية للغة، باعتبارها تجسد الغاية القصوى التي يرمي إليها الاتصال اللغوي.

إن هذا التحليل يخلص بنا إلى الاستنتاجات الآتية :

١- اللغة بناء يتسم بالثبات والاستقرار.

٢- اللغة نظام يتصف بالانسجام والتناسق.

٣- القوة الإنجازية والإخبارية للتواصل اللغوي، هي التي تحدد الفاعلية السياقية للعناصر اللغوية، وتحقق أغراض المتكلّم ومقاصده الإبلاغية، من

تصرفه فيها بالتقديم والتأخير، والذكر والحذف، والتعريف والتنكير، والإثبات والنفي، وغير ذلك.

٤- لقد استقل الاسم بخصوصيته الذاتية في ارتباطه بمسماه، كما استقل الفعل ببنيته المميَزة التي تجعله منقطعًا أومستمرًا، وواقعًا أوغير واقع.. وأما الحرف فلا استقلالية له ولا تميز له بذاته بسبب ضعفه ونقصه الطاعن في مبناه ومعناه معًا.

أ/ قال المستشرق ليتمان في محاضراته:

«وإنما كما تنبت الشجرة في أرضها، كذلك نبت علم النحو عند العرب، وهذا هوالذي رُوِي في كتب العرب من زمن... وبرهان هذا أن تقسيم الكلمة مختلف. قال سيبويه: فالكلم اسم وفعل وحرف جاء لمعنى، ليس باسم ولا فعل.. وهذا تقسيم أصلي.

أما الفلسفة فينقسم إلى اسم وكلمة ورباط.. وهذه الكلمات تُرجِمت من اليوناني إلى السرياني، ومن السرياني إلى العربي، فسُمّيت هكذا في كتب الفلسفة، لا في كتب النحو.. أما كلمات اسم وفعل وحرف فإنها اصطلاحات عربية ما تُرجِمت ولا نُقلت».

ب/ فمن هذا، وتأسيسًا على خصائص التوصيف العلمي للكلمة عند سيبويه، كما عرضنا لذلك آنفا، فإنه يحق لنا أن ندّعي بإنصاف تام وموضوعية كاملة، أنه إذا كان ثمّة شيء من التماثل بين علم النحوالعربي وغيره، فإننا نعتبر بحق وصدق أنه أقرب في مادّته وموضوعه ومنهجه، إلى الطابع الحديث للبحث اللغوي المستجد في النظريات الغربية الحديثة، وذلك من الخصائص الآتية:

١- فالوصف، قد التزم فيه سيبويه بجوهر ما يشترطه الدارسون الوصفيون المحدثون، وهوضرورة الفصل بين الذات والموضوع.

٢- كما أننا نلحظ بوضوح ترسخ المفهوم البنائي على صعيد الكلمة وأصالته عند سيبويه، لا سيما وأن الكلمات هي اللبنات الأساسية التي يقوم عليها صرح البناء اللغوي.

٣- وأما المفهوم المتعلق بوظيفية اللغة، فإنه جاء صريحًا عند سيبويه، في ربطه بين بنية الكلمة ودلالة الانقطاع أوالاستمرار، والوقوع أوعدم الوقوع، وهوما يجسد أولوية القيمة الإبلاغية والقوة الإخبارية في التواصل اللغوي.

٤- ثم إننا نجد أن النظرية التوليدية والتحويلية عند «تشومسكي»، قد أقامها على أسس رياضية، يغلب عليها الطابع التقني الملموس، ثم اضطره نقّاده إلى إدخال عامل المعنى بعد ذلك، ومراعاة أهميته في الاشتقاق التوليدي.. لكننا لا نلحظ إلى اليوم أن تشومسكي يعطي للقوة الإخبارية في اللغة أولوية التصرف في تحريك مواقع البنى اللغوية، كما أقرَّ بذلك سيبويه عندما ضمّ بنية المضارع والأمر تحت مظلة الوقوع الإخباري أوعدمه.

٥- إن عناية سيبويه نراها قد تعلقت أساسًا بالتوصيف البنوي الوظيفي للكلمة في العربية، ثم إنها تركّزت خصوصًا على التوصيف البنوي للفعل أكثر من الاسم والحرف، وهوما يثبت أهمية الوظيفة الإخبارية الإنجازية التداولية للغة عند سيبويه، باعتبار أن الفعل هوقطب الرحى في كل عملية إخبارية .. وشهادة ذلك ماثلة خاصة في كون علم الصرف قد أتى في معظمه مختصًّا

بالفعل، بسبب ما يطرأ عليه من تحويلات وتغييرات كثيرة ودقيقة، ولا ريب في أن «هذا قليل من كثير ممّا يدل على غنًى اللغة العربية، غنًى تامًّا في الاشتقاق والمجاز، قلّ أن تجاريها فيه لغة أخرى، وكذلك ما لها من طرق متعددة في[١٧] القلب والإبدال والنحت ممّا يطول شرحه.»

وكلّ ذلك إنما يجسّم النظام الهندسي البديع للعربية، على حد تعبير العالِم النحرير أبي الفتح بن جني في الخصائص.. ولا سبيل لنا لتجديد العهد مع هذا النظام الهندسي البديع بحثًا وتمثّلاً وابتكارًا. إلا بحتمية الفصل والتمييز بين النحوالعلمي في جذوره العربية الأصيلة، والنحوالتعليمي الذي أحدث كيفيات وطرائق خاصّة بتلقين النحووتعليمه، وذلك ما أوجب عليه أن يفرض نهجًا معياريًّا سعى به للحفاظ على العربية تعلّمًا واكتسابًا.

إنّ من أكبر السِّمات الدّالة على عظمة العالِم سيبويه، أنه تمكّن من أن يحافظ على تميّز شخصيته العلمية، واستطاع أن يفرض قامته العلمية سامقة أمام القمة الخليلية الشامخة، بل إن تاريخ التراث العربي يسجل له فضل تخليد الآثار العلمية الخليلية، فلولاه لتمّ انتحالها وذهبت أدراج الرّياح.

لقد كان سيبويه عالِما تأصيليًّا منظّرًا «ولم يكن جامعًا فقط، بل كانت له شخصية قوية في التحليل والترجيح، مع جودة في العبارة..فإذا علمنا أنه فارسي

(١٧) نقلاً عن كتاب نشأة النحو. للشيخ الطنطاوي. ص: ٢٢/ وكتاب ضحى الإسلام لأحمد أمين. ج٢. ص: ٢٣٩.

الأصل، وأنه عربي بصريٌّ بالمَرْبى، وأنه مات وله بضع وثلاثون سنة، أدركنا مقدار نبوغه.»

وبهذا المعنى فإنه يظل جديرًا بالعربية دومًا أن تفخر بعبقريتها الشابة، كما أنه يحِقّ لأهلها أن يعملوا على تجديد عنفوان العربية في سائر الأجيال والعصور علمًا واستعمالاً..

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.

٢- ابن جني (أبوالفتح عثمان). الخصائص. تح: محمد علي النجار. المكتبة العلمية. ج١.

٣- ابن هشام الأنصاري (جمال الدين). شرح شذور الذهب. تح: محمد محيي الدين عبد الحميد. المكتبة العصرية. بيروت. ١٤١٨هـ/ ١٩٧٩م.

٤- أحمد أمين. ضحى الإسلام. دار الكتاب العربي. بيروت. ج١ ، ج٢.

٥- الإسفراييني.(تاج الدين محمد بن أحمد). لباب الإعراب. تح: بهاء الدين عبد الوهاب عبد الرحمن. دار الرفاعي. الرياض.ط١. ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م.

٦- البطليوسي (عبد الله بن السيد). إصلاح الخلل الواقع في الجمل للزجاجي. تح: الدكتور حمزة عبد الله النشرتي. دار المريخ. الرياض. ط١. ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

٧- سيبويه. الكتاب. تح: عبد السلام محمد هارون. مكتبة الخانجي. القاهرة. ط٢. ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

٨- الشيخ محمد الطّنطاوي. نشأة النحووتاريخ أشهر النحاة. دار المعارف. ط٣.